

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد التاسع | ديسمبر سنة ١٩٥٨ | العدد الرابع

محتويات هذا العدد

الموضوع



ثورة الهند لعام ١٨٥٧ م

للأستاذ همايون كبير

نحتفل فى العاشر من مايو سنة ١٩٥٧ بمرور قرن على الكفاح الذى قام به الشعب الهندى فى سنة ١٨٥٧ ، وكما أن كل تحديد للوقت مبنى على التحكيم فكذلك اختيار هـذا التاريخ أيضاً أمر تحكيمى ، وليس ذلك أن أهالى الهند استيقظوا فى صباح العاشر السعيد من مايو سنة ١٨٥٧ م وقرروا فجأة بالقيام ضد البريطانيين ، كما أن الهند لم تأت تحت سيطرة الانكليز فى يوم واحد ، فعمليات الثورة والتحرير أيضا لم تزل جارية فى عدد من الأعوام ، والحقيقة أن الكفاح لتحرير الهند بدأ مذ يوم صار البريطانيون حاكمى البلاد الأقوياء .

تمت سيطرة البريطانيين على الهند فى عشرات من السنين ، وما فعلوا شيئاً يعد من إجراءات الفتح أو الاستعباد إلى مدة طويلة ، والبرتغاليون لعلما فكروا فى إقامة مملكة فى الهند فى أول نزولهم ، لكن البريطانيين لم يقصدوا ذلك فى البدء ، وكان ذلك عمل الفرنسيين الذى هيج البريطانيين على امتثالهم ، وكل من الفرنسيين والبريطانيين جاءوا إلى الهند تجارا وكانوا لايتوجهون إلا إلى نفعهم وحفظهم أولا ، لكنهم أدركوا بالسرعة أن أميرا مواليا لا يحرسهم فقط بل يعاونهم فى المسابقة ضد التجار المنافسين ، ومضى وقت طويل فى تحقيق هذا الاكتشاف بأجمعه ، ولو أن الانكليز صاروا حاكمى بنغال بالفعل بعد معركة بلاسى لكن الشركة الهندية الشرقية (East India Company) مازالت منهمكة فى منافع التجارة أكثر من مصالح الحكومة عدة سنين .

أدرك سراج الدولة من المبدأ مع زلاته أن الانكليز كانوا خطراً لاستقلال الهنـــد. لكن إدراكه السياسى كان لا يمـاثل جودة التنظيم وبسالة الجيوش ففشل وخاب كما خاب ميرقاسم فى جهده لمنع موظفى الشركة من الاستحصال، وبقيت المخالفة للاجانب فى نواح أخرى بغير نظم، واستعمل الانكليز دسائسهم ومكائدهم فى التفريق بين قوة وأخرى، ولا شك أن حيدرعلى لشتت الانكليز فى الجنوب لولا أغاثهم نظام ومراهتة وكذلك وجد الانكليز القتال بمراهتة صعبا بدون معاونة نظام، وكادت الفرقة (مراهتة) أن تسيطر على جميع البلاد لـكن أبناءها كانوا فرسانا أكثر من السياسيين وهزموا، وكان من أهم أسباب هزيمتهم أن قوتهم العسكرية قد كانت مزقت قبل فى معركة «بانى بت» الثالثة.

حصلت للبريطانيين الى نهاية القرن قوة متصرفة فى الهند لـكنهم مازالوا مدعيين بطاعة الامبراطورية المغولية، وبدأ الجنود الأهليون الذين استخـــدمهم الانكليز يشعرون بأنهم آلة فى أيدى الأجانب، وعندئذ لا يوجـــد شعور القومية، أما الجنود فانهم شعروا بأن قوة خارجية بدأت تملك أزمة الحـكومة. وحدثت ثورات صغيرة فى بداية القرن التاسع عشر فى بنغال ومدراس كما تقول السجلات العسكرية المحلية إلا أن القلق لم يتشكل فى الثورة القومية إلا فى سنة ١٨٥٧ م

ولا يتفق المؤرخـون حول أسباب أدت إلى ثورة ١٨٥٧، فالمؤرخون البريطانيون يسمونها ثورة جندية خاصة وهم يدعون أيضا بانهـا كانت محلية لأن الجيش الثـائر من الجيوش الثلاثة (بنغال، مدراس، بومبائى) كان جيش بنغال فقط، ويقال إن الطبقة الوسطى أيضا لم تؤيد الثائرين على العموم فى شمال الهند، وكان بنجاب وطبقات كثيرة أيضا فى بنغال وبهار على مساعدة الانكليز، وكان ذلك فى بعض مناطق أوده وروهيلكـنـــد أن الثائرين فازوا بنيل العون من الأهالى العامة. ويوجد مؤرخون من الهنود والانكليز الذين يرون أن الثورة كانت نتيجة

لأسباب دينية، ولا نزاع فى أن الداعية الدينية كانت من أهم أسباب الثورة . وتيقن كل من الهنود والمسلمين أن الشركة الهندية الشرقية (East India Company) كانت تجاهد لردهم إلى الديانة المسيحية، وبالغوا فى ذلك حتى أن الاجراءات الاصلاحية كمنع «ستى» ونشر الدراسات الغربية اتهمت كذلك بالدعاية المسيحية

ويرى المؤرخون الآخرون أن الفقر كان سببا مؤثراً للثورة، والحقيقة أن الولاة الأجانب كانوا لا يوجدون فى الهند قبل ورود الشركة الهندية الشرقية . وجاء آريون (Aryans) إلى الهند لفتح البلاد لكنهم استوطنوها، ويصدق هذا أيضا على الهاجمين الآخرين والأمراء التابعين. وإن محمد غورى ولو كان أجنبيا لكنه لم يحكم على الهند . أما قطب الدين فانه كان أول أمير الهند من جيل الأفاغنة وصار هنديا كاملا وما كان له صلة بخارج الهند ، لكن خلفائه ولدوا فى الهند، ومصالحهم كانت محدودة بالهند بأجمعها، وكذلك نقل بابر أسرته من كابل إلى دلهى بعد غلبته على الهند، وصار المغول فيما بعد معروفين باسم الملوك الهنود، أما البريطانيون فانهم كانوا أول حاكمى الهند الذين لم يقطعوا صلتهم بمبدئهم وما زالوا خارجين .

وكان احتلال البريطانيين موجبا حقيقيا لفقر البلاد، لأنهم كانوا أول حاكمى الهند الذين شرعوا بارسال الأموال من الهند إلى وطنهم، وأما الملوك الذين قبلهم وإن كانوا يغتصبون الأموال من رعيتهم لكنهم أنفقوها فى الهند ، وكانت هى أول مرة فى تاريخ الهند أن صدرت أموالها إلى خارج البلاد طبقا لسياسة الحكومة . وبما أن الشركة كانت مؤسسة تجارية أصبحت الاحوال أسوأ، إذ كان موظفوها كلهم كانوا يرون كل شيء من الوجهة المالية ويرجحون منافعهم الذاتية والاجتماعية على مصالح الحكومة وهم عاملوا بالصناعات الوطنية معاملة الاهمال، فتدمرت وتضاعفت الأثقال على البلاد . ولاريب أن الفقر المتزائد والعسر

المتضاعف كانا من أهم أسباب الاضطراب التى أدت إلى الثورة الهندية.

وذهب بعض المؤرخين الهنود الى أن الثورة كانت نتيجة أعمال للفيف من الزعماء الذين يتفكرون من الوجهة القومية، وحجتهم أن الثوار اجتمعوا على قيادة «بهادرشاه» مع اختلاف دينهم ونسلهم، وهم يستدلون أيضاً بأن وجود الهنود والمسلمين فى الثوار برهان قاطع على أن العواطف الدينيـة لم تكن عوامل قوية للثورة.

وليس من السهل إيضاح كل ما وقع سنة ١٨٥٧ م، كما لا يمكن تخصيص سبب محدود لوقعة تتعلق بملائين من الناس، والحقيقة أن العوامل المختلفة من الخصومة الذاتية والعصبية الدينية والعاطفة الوطنية والداعية الاقتصادية وغيرها كلها ساهمت فى إثارة الثورة، كما لعب التوهم دورا هاماً فى تعيين وقت للثورة فان الناس كانوا يعتقدون أن عهد البريطانيين لا يتجاوز عن مائة عام، ولذلك رأوا أنه سينقضى قبل يونيه ١٨٥٧. والحركة لم تكن مبنية على وحـدة الخيال ولم تكن أغراض الزعمـاء خالصـــة، وكما تنشىء عيون كثيرة نهرا عظيما فكذلك عوامل السخط الذاتيـــة والدينية والجنسية والقوميـة كلها اجتمعت لتشكيل ثورة ١٨٥٧ بصورة خطر عظيم لوجود الشركة الهندية الشرقية.

ولا ينكر أحد أن النظر فى الأسباب التى أدت إلى ثورة ١٨٥٧ أمر هام، ولـكن النظر فى الأسباب التى أدت الهنـد إلى الفشل فى هذه المعركة العظيمة أكثر أهمية، وتعود الناس فى الحاضر أنهم يستقبحون أعمال البريطانيين ويتهمونهم بتخلفنا الاقتصادية وبخيبة عزيمتنا، ولا شك فى أن السلطة الأجنبية جعلت الناس فى أسوإ حال من الفقر والجهالة وأوهنت السجية القومية، ولـكن كان من المستحيل أن يتسلط علينا قوم أجنبي إلا أن نكون ناقصى الأنفس، وكانت الأجانب فئة قليلة ومع ذلك خضعت لهم البلاد وطالت أيام الاستعباد، فهـذا كله يدل على

عيوب السيرة الهندية.

وانقسام البلاد فى أجزاء كثيرة كان سببا رئيسا لاحتلال البريطانيين، ولم يكن التقسيم مبنيا على الديانة واللغة فحسب، بل على عواطف إقليمية محدودة. ونشاهد أيضا أن الأكثرية فى بلادنا لا تزال تحب إقليمها أكثر من بلادها ولا يوجد فى أكثر اللغات الهندية كلمة بمعنى المقاطعة أو الاقليم. ومن الاقاليم التى اعتبرت قطرا مستقلا كانت مقاطعة بنغال، ومهاراشتر، وبنجاب، وتامل ناد، وأريسه، وأوده، وسكان هذه الأقاليم يدعون بنغاليين ومراهته وبنجابيين وتامليين وأريايين أولا والهنود فى الدرجة الثانوية.

وكانت هذه التقاسيم الملية والاقليمية سيئة جدا، وأسوأ منها كان انقسام القوم فى طبقات وفصول مما حالت دون نشو العاطفة والتقدم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وأوضحت فى كتابى «التراث الهندى» (Indian Heritage) ما كانت للطبقات الهندية مزايا فى عصور مختلفة، ولم تنحصر أثرات الطائفية المذمومة فى الهندوس بل تعدت إلى المسلمين والمسيحيين أيضاً، وكانت النتيجة أن الهنود لما سعوا بالقيام ضد الحاكمين البريطانيين فى سنة ١٨٥٧ ظهر الفرق بين المتحاربين، فكان البريطانيون رجال الأعمال موقنين بصداقة ملكهم وسلطانتهم، وكان الهنود طوائف مختلفين غير مطمئنين لا يتفقون إلا فى حقد العدو المشترك لجرى ماجرى.

ومن العجب أن ملوك الهند وأهاليها لم يتحدوا أيضا عند تغلب الانكليز على بلادهم، فانهزموا مرة بعد أخرى، ولم يمتنعوا أيضا عن مساعدة الانكليز على إخوانهم، ولا يكذب من يقول إن الانكليز تملكوا البلاد بالجيوش الهندية. أما المخالفة فكانت محدودة فى أمكنة معدودة، وفاز الانكليز فى القضاء عليها واحدة بعد أخرى، ولم تخضع دلهى بهذه السرعة إلا باعانة بنجاب ونشبت الثورة بشدة

فى أوده وروهيلكند، لكن البريطانيين نالوا معونة من الأهالى وقد بينت أن الجنود فى بومباى ومدراس ماداموا مساعدين للانكليز فى الثورة.

ومما يدل على قلة فطانتهم أن المواطنين قاموا بمنازلة العدو، لكنهم لم يكونوا لهم جبهة متحدة، وكانت الأغراض الاستئثارية موجودة أيضا فى الوحدات المتمردة. وكل ذلك أدى إلى ضعف الحركة، وتنازع القائدون فى لكهنو وكانپور، أما فى دلهى فدبر الزعماء دسائسهم ضد الآخرين وكانت الانفرادية قد غلبت على كل شىء ولذلك فضل قائد أن يخضع على أن ينال زميله شرف الانتصار، وسعى بخت للتقدم لكن أصحابه فكروا فى خيبة أمله، ولم توجد حركة متحدة مع أن وحدة الشعور كانت موجودة فى الناس، لكن العمل ما دام منتشرا وضعيفا، وأصبح الالتصاق بالأغراض الطائفية حاجزا من الوجهة العسكرية وأشد مضرة بطرق أخرى، ومن المعلوم أن موالاة أسراب صغيرة قد تكون محدودة وسريعة الاشتعال، إذ كان الهنود منقسمين على أساس اللغة والديانة والجنس، فالنتيجة كانت تعظيم العادات والرسوم والمعتقدات عند كل طائفة، والعصبية لا تكون قوية إذا اجتمعت الطوائف على أساس المساواة، وحينما تتقابل العادات والرسوم المتغائرة لتضعف العصبية وتنمو الروح الحرة، وشوهد أن المشتغلين بالملاحة يستعجلون بقبول أفكار جديدة، إذ أنهم يتعارفون بعقائد جديدة ومؤسسات عصرية ويبدأون بمقابلة معتقداتهم الموروثة بأفكار جديدة، وكان الهنود فقدوا تراث الملاحة لهم قبل مئات من السنين، وكانت القدامة ذائعة فى مختلف الطبقات الهندية قبل احتلال البريطانيين، والقدامة تعنى رسوخ العقيدة وضيق النظر، والتصاق الأهالى بهذه الصفة جعلهم خاسرين فى معركتهم ضد البريطانيين.

وكانت روح المحافظة على القديم فى الهند تنمو منذ عدة قرون، ومقاومة الأفكار الجديدة كانت مظهرا من مظاهرها ويعقبها الالتصاق العامى بعقائد قديمة

وعادات سالفة مع أنها فقدت إفاديتها، ولما كان كل واحد من الفرد والجماعة خاضعا لما يعتقد به فصار مشكلا أن يتوقع منه السلوك بالصواب وكانوا يجيبون فى أحوال معتادة لكنهم خسروا حينما تغيرت الأحوال، واستخرج المؤرخون أن الهنود لاقوا الهزيمة فى منازعات القرون الحالية ضد الغزاة الخوارج رغم كثرة جنودهم، وذلك لفقدان البسالة الشخصية، لأننا نجد أمثالا كثيرة للأبطال والبواسل لكن الأوضاع قد تغيرت ولا تنفع فيها الشجاعة الشخصية.

ولم تكن هزيمة الجيوش الهندية الكثيرة فى مقابلة الجنود الخوارج القليلة إلا لرادئة أسلحتهم، وجهلهم بفن الحرب وفقدان الاحتمال فيهم، وتخلفهم فى الأسلحة هذا كان نتيجة محافظتهم وعدم تنورهم. واستخدم الهنود الأسلحة السفلى لحبهم فيها مع أن الأسلحة الجيدة قد كانت اكتشفت واستخدمت فى أقطار أخرى، ويرجع تخلف الهنود فى فن الحرب إلى تخلفهم فى دراسة التاريخ ومن تمسكهم بالعادات الغابرة والموالاة المنقسمة، ولم يكن سبيل غير الانكار أوالطاعة، وكان موت الملك أو أسره وكذا موت القائد أو أسره من علامات الهزيمة والفشل، وكان العمل بالعكس فى أقطار أخرى إذ أن الجيش هناك باع انتصاره بخلاص قائد فى معارك شتى، واتصاف الهنود بالمحافظة وضيق النظر صدهم عن نيل المكارم فى الفنون، وتقول السجلات إن الفلاسفة والمفكرين فى الهند القديمة بحثوا عن تصورات نهائيــة، وكان الطلاب يسئلون أساتذهم بالحرية ويجعلونهم متحيرين، ونشأة الاسلام كانت أيضا ثورة عقلية وضعت الفكر والبرهان على موضع التبعية العمياء، ومن سوء الحظ فقد الهنود صفة الاستعلام قبل قدوم البريطانيين إلى الهند، وكان بابر عند قدومه إلى الهند تحير بفطانة الأهالى وذكائهم.

ثقلت خسارة الصفة الاستطلاعية الأذهان الهندية، وأسفرت عن الجمود الذهنى والمعنوى والأخلاق، وترك الناس سبيل الرشد لأغراضهم الذاتية فانهم يدعون

عاقلين، وفى هذه الأوضاع تغلب توجهات شخصية على المنافع القومية، ونجد فى تاريخ الكفاح الهندى فى سنة ١٨٥٧ أن الأفراد فكروا لأنفسهم أكثر من تحرير بلادهم وحفظ دياناتهم.

وكان الشقاق الداخلى سببا رئيسيا لهزيمة الهنود فى سنة ١٨٥٧، وكان المحافظة على القديم وفقدان روح المعرفة سببين آخرين، ويساويهما أهمية سقم النظام الاجتماعى الذى أنشأه الطوائف، ومن فاجعات التاريخ أنهم لم يقبلوا مساواة الانسانية حتى الآن، وكان للبراهمة مرتبة عليا فى الهند القديم إذ أن شودر جعلوا محرومين عن حقوقهم الانسانية، ورغم كل حديثنا أن جميع الناس أولاد البراهمة نسلم المدارج والتفاريق فعلا بين الرجال، وكانت أحوال التفاوت فى الهند شائعة بشدة حيث خابت جمهورية الاسلام المرشدة، واختلف المسلمون فى الحقوق السياسية وجحدوا بمنح الامتيازات التى كانوا يستفيدون بها لغيرهم، وكانت فى المسلمين أيضا أفراد العائلة الحاكمة سواء كانوا من الأفاغنه أو المغول الذين يحوزون بامتيازات حرمت لغيرهم، ومن المعلوم أن شقاق الأعيان المسلمين الداخلى كان سببا لتمزق السلطة المغولية وكانت الشيعة أكثر نفوذا وقدرة منذ عهد جهانجير إذ أنهم هاجروا من إيران التى كانت موطنهم، لكن أورنجزيب سعى لتغيير الحالة وكان ذلك من أهم أسباب هزيمته.

ولما جاء البريطانيون اشتدت عواطف التفاوت وعدم المساواة، واختار البرهمة لهم مقاما رفيعا على جميع الفرق الهندية، وامتياز النسل وكبر البريطانيين جعلا عددا وافرا من الطبقات الهندية خوارج، ولا ريب أن صلة البريطانيين أفادت الهنود ماديا بصور كثيرة، وأكثرها نفعا كان الهياج الذى أدى إلى النشأة الجديدة وأخيرا إلى حرية الهند، ومع ذلك لم يرض الهنود عنهم ولم يتقبلوهم وكان للمرة الأولى أن دستور الجمهورية الهندية احتوى المساواة كاحدى قواعده الأساسية.

وعلينا أن نسلم بأن المساواة ما هى إلا صورة خيالية، والواقعات تدل أن الناس لا يعملون بها كما حقها.

نلخص أسباب الفشل فى سنة ١٨٥٧ عبرة للأهالى لكى لا يخطئون فى المستقبل، فعليهم أولا أن يتخلوا عن الموالاة الطائفية التى أضرتهم فى الماضى، وتضرهم أكثر فى المستقبل وثانيا يلزمهم أن يتركوا المحافظة على القديم والتمسك بالأوهام الشائعة ويفتحوا آذانهم لقبول أفكار جديدة. فانهم لم يماثلوا عدوهم من الوجهة العلمية والحربية، ولذلك فشلوا فى مقابلته. ولا مقام للطائفية فى العصر الحاضر لأن العالم يتحد بسرعة وضيق النظر لا ينفعهم أبداً، وثالثا ليتصفوا بعادة الاستعلام والتفتيش لكى ينهضوا فى ميدان العلم والحكمة، وأخيرا على الهنود أن يعتبروا مضرات التفاوت وعدم المساواة، فاللازم أن يجاهدوا للقضاء على هذا المرض المهلك وليعملوا معاملة المساواة بكل فرد بلا تخصيص الديانة والفرقة والنسل، وإذا اعتبروا من عام ١٨٥٧ فلا نخسر فى مهمتنا بل نستفيد للغاية.

تعريب الأستاذ محمد عبيد عرب